Sodom ve Gomore

Yakup Kadri KARAOSMANOĞLU

ترجمة رواية "سدوم وعمورة"

للكاتب التركي

يعقوب قدري قره عثمان اوغلو

للباحث

محمد مجدي السيد بيومي

وفقًا لما ورد في" التوراة"؛ فإن "سدوم وعمورة" كانتا في عهد "لوط"، و"إبراهيم" عليهما السلام، وكانتا من كُبريات مُدن "فلسطين" المعروفة بالفساد الأخلاقي وقد نال منهما غضب الرب، ولقد ذُكرت في سفر "التكوين" في الجزء الثامن عشركما يلي:

20وَقَالَ الرَّبُّ: "إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا"

21أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ"

22وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ.

23فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: "أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟"

24"عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟"

25حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ؛ أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلًا؟"

وهكذا، كانت "إستانبول" تبدو للكاتب إبَّان بقائها تحت الاحتلال.

I

"7 بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم، وهي خربة كانقلاب الغرباء
8 فبقيت ابنة صهيون كمظلة في كرم، كخيمة في مَقثأة، كمدينة محاصرة
9 لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة، لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة." "العهد العتيق: سفر إشعياء، 7،8،9"

استيقظ كابتن "جيرالد جاكسون ريد" متأخرًا من قيلولته على غير العادة. يمكننا القول إنه قد استيقظ هنا واستفاق في مكانه، لأنه قد ألقى بنفسه على مضجعه بصعوبة قبل ثلاث ساعات عقب مائدة غنية دسمة مصحوبة بالكحول أكثر من اللازم.

كان أول شيء قام به كابتن "جيرالد جاكسون ريد" عندما فتح عينيه؛ أن نظر إلى ساعته، ثم مَدَّ ذراعه من أسفل أغطية الفراش إلى الخارج، لأنه عندما خَلَدَ إلى النوم نَسيَ أن يخلع ساعته من ساعده. كانت ساعة طويلة عريضة مرصَّعة بالذهب الرقيق ولم يتَّضح الوقت الذي هي عليه بسبب الظلام، بخلاف ذلك قد تضببت عيناه نتيجة الخمور (بورديوكس، وبورجوني) المغشوشة التي احتساها في وجبة الغداء. (ص 11) تمطط وتثاءب، ثم فتح المصباح الذي بجانبه ورأى في ضوءٍ أحمر غامق أن الساعة تجاوزت الخامسة والربع، ثم قال:

ــ يا إلهي، لقد تأخرت.

لم ينسَ أنه مدعو اليوم على احتساء الشاي لدى أسرة تركية، مع أنه بإمكانه عدم الذهاب. إلا أن قلبه لم يطاوعه في منع قصة الحب التي بدأت حديثًا بينه وبين كريمة صاحب الدعوة أيًا كان السبب. لا يَخفى أنه منذ أن قدم "إستانبول" لم يدع لحظة تمر دون حب، ولم يرفع عيناه أبدًا عن النساء، إذ أنه قد شبع من ألاعيب الحب هذه. فبسببهم لم يتبق لديه وقت لمتابعة الأعمال التي استأمنته حكومته على إنجازها.

حتى أنه كان يود الوقوف فجأة في وسط المشية العسكرية مثلما يحدث في أثناء التدريب في الثكنة ويصيح في كتيبة النساء الولهات اللائي يركضن خلفه باستمرار ويحاوطنه، عن طريق الوقوف

فجأة قائلًا بسخرية" قف، استرح، عد في المكان". كذلك كان الحال أثناء التدريب في الثكنة العسكرية.

كذلك كان الحال أثناء التدريب في الثكنة العسكرية، ولكن أينضبط جنس النساء؟ فالبشر المتوحشون أبناء الغابات التي لم تدخلها بلطة الذين تجلبهم مكاتب تجنيد جيش "بريطانيا" العظمى عراة تمامًا، والذين هم تحت لواء قائد أملس، ذي بشرة وردية مثل كابتن "جيرالد جاكسون"، حتى هؤلاء من الممكن أن ينضبطوا، في حين لا ينضبط نساء هذه المدينة.

كان الضابط الإنجليزي الشاب يفهم تلك الحقيقة جيدًا، ولكنه لا يمتلك القدرة على إظهار الطاقة اللازمة لإنهاء هذه المغامرة الغريبة. أضف إلى ذلك؛ لمَنْ سيحكي هذا الكلام؟ فذراع الحصار المحتشد الذي يَحوطه كان أكثر همجية من جيش "بريطانيا" العظمى؛ فإلى جانب "التُّرك" تجد فيهم "الروس"، و"الأرمن"، و"اليهود"، وكذلك تجد الأرمل، والمتزوج، والشاب، والكهل، والمقامر، كما تجد منهم أسمر اللون، والسمين، ومرهف الحس، وأيضًا تجد فيهم الحسَّاسة، مثل: "جولييت"، والحالمة مثل:"أوفيليا"، كما فيهم المُدَللة مثل:"كليوباترا"، والطموحة أكثر من "كاثرين".(ص12)

ظل كابتن "جيرالد جاكسون" المسكين متحيِّرًا؛ أيَّ الأطعمة يتناول، وكأنَّه دُعيَّ إلى مائدة طعام روميَّة قديمة. كان يشعر دائمًا بمللٍ شديد كما الماجنين الذين اعتادوا على ذلك شيئًا فشيئًا دون بلوغهم سن الثلاثين. في حين أنه لم يكن لديه الشيء الذي يعطيه لتلك النسوة. كان كل ما يشغل فكره المتحمس هو أن تحبه النساء وحده وتبحث عنه وتتهافت عليه، وأن يثيروا العديد من مواضيع العراك في المنافسة والمشاركة وألَّا يتركوه وشأنه أبدًا، كان هذا يتعبه ويهزُّهُ ويصيب جهازه العصبي باضطرابٍ غريب.

تمطَّى مرة أخرى ثم تثاءب وتقلَّب في مضجعه من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين. في هذه الأثناء كان يطرق باب الغرفة بطرقات خفيفة حائرة. فمن يا تُرى؟ يا إلهي إنها الفتاة طالية الأظافر؛ فقد نسي تمامًا أنه وعدها بلقاء في الساعة الخامسة. فكَّر قليلًا في أمرها أيجعلها تذهب أم لا؟ كان جسده يريد البقاء على المضجع بشدة، ولكن قرر أن يسمح لها بالدخول

على الفور. بشيء من الخجل والاندهاش اقتربت الفتاة من مضجعه في خطواتٍ حائرة، وسألته بصوت كتغريد يمامة قالت:

ـ أأتيت مبكرًا بعض الشيء؟ لا أريد إزعاجك يا كابتن؟

حينها كان كابتن "جيرالد" يُمشِّط شعره الذي يُشبه لون الليرة الإنجليزية بأصابعه الطويلة البيضاء ومستمرًا في التثاؤب. وأخيرًا عطف على الفتاة وأجابها قائلًا:

ـ رجاءً خذي هذا الكرسي واقتربي مني وابدئي على الفور.

طلبَ كابتن "جيرالد" من الفتاة أن تسرع فكان يقول في نفسه:

ـ يجب عليَّ في تمام الساعة السادسة أن أكون أنجزت كل أعمالي، وارتديت ملابسي وانصرفت. كانت الفتاة الروسية تنظر من تحت جفونها في الأضواء الحمراء الغامقة إلى الشاب الذي يمتلك جمالًا لا في البشر، ولا في الطبيعة. (ص13)

كان كابتن "جيرالد" قد خلد إلى النوم دون أن يغلق أزرار ثياب نومه، ولذلك فإن عنق ج.ريد البيضاء العارية الممتدة من ياقته المفتوحة أكثر ما يجذب انتباه الفتاة؛ حيث يمتد بوضوح من جيبهِ إلى أعلى. كانت الفتاة الروسية تنجذب نحو هذا العنق دون أن تشعر بالخجل من النظر إليه حيث إنها لم تكن تتحمل جاذبيته. واستمر هذا لعدة مرات لدرجة أن المبرد الذي في يدها كان على وشك أن يتجاوز يد كابتن ريد إلى لحمِه. لم تستطع الفتاة المسكينة أن تنحّي عينيها عن رأس كابتن "ريد"، أي رأس هذه التي قد أُخذت من تمثال "أبوللون"، وتم تشذيبها بعناية فائقة ووضعت فوق هذا العنق؟ فكما كان اليونانيون القدامى يطلون تماثيلهم ويزخرفونها بماء الذهب، فهذا أيضًا تم طلاؤه وزخرفته بماء الذهب وخرج للتو من يد فنان ولم يرَّ شقاء الزمان أبدًا كتحفة فنية تشبه المرمر.

كانت الفتاة الروسية ينتابها الشك في كل مرة تنظر فيها إلى هذا الرأس، فكانت تتساءل كم عمر هذا الرأس البشرية؟ وما نوعه؟ أذكر أم أنثى؟ أيعقل حتى أن تكون هذا رأس بشر؟

ولكن عندما أدار كابتن "جيرالد" عينيه وحدَّق في عينيْها، ظنَّت أنها رأس حيوانٍ خرافي قد انقرض نسله. فعلى الرغم من أنها حيوانات لها خِلقة غريبة، إلا أنها صراحة جذابة لدرجة لا يتخيلها أحد. فجميلات الآلهة قد وهبن أنفسهن للحيوانات أحيانًا في البحار، وأحيانًا في الغابات، وأحيانًا على سفوح الجبال شديدة الانحدار.

ومع أن الفتاة الروسية المسكينة التي أرسلها صالون حلاقة "باي أوغلي" لم تكن إحدى المعبودات. ولكن هذا الثعبان الذهبي ذا العيون الذهبية الذي يمد عنقه بخمول وحرارة نحو الخارج ذاك الذي يحمل اسم كابتن "جيرالد" لو شاء لكان جسدها الرقيق اليافع جاهزًا للتسليم دون تفكير أبدًا. (ص14) ولكن للأسف لم تكن نفسه تشتهي أيّ شيء، فحقًا كان كثعبان أليف مُستأنس ابتلع صيده وشبع ونام ملتفًا حول نفسه.

سأل الفتاة بصوت كأنه يدق صفارة عجيبة من بين أسنانه قائلًا:

ـــ لماذا تنظرين إلى وجهي ببلاهة هكذا"؟

أومأت الفتاة المسكينة رأسها إلى الأمام، واستطرد كابتن "جيرالد" بحدَّة مصطنعة قائلًا:

ـ لقد أخبرتكِ أن تنهي الأمر سريعًا أيتها الصغيرة.

لم يكن كابتن "جيرالد" صريحًا إلى هذا الحد في استعجاله. على صعيد آخر كان موقنًا بأن "أوفيليا" ذات العيون السوداء تنتظره على أحرٍ من الجمر. كان قلبه عادة لا يحرك ساكنًا حتى الآن، ولكن هذا الانتظار كان يحرقه. وكان يقول في سريرته:

ـ أعشقت أنا أم ماذا؟

والحق يقال إن هذه الفتاة التركية منذ البداية كان لها مواقف رائعة. وقد كان كابتن "جيرالد" لا يتعجب من هذا الجمال الفائق؛ إذ أنها لا تُقارن بالنساء التي عرفها في "إستانبول"، إلا أنها كانت أكثرهن معرفة وأقربهُنَّ إلى تربية الإنجليز وثقافتهم. هي التي في حضورها لا يستطيع "جاكسون" استيعاب أي شيء يدور حوله. وكان يعتقد أنه في بلده، بل في بيته وأنه يعيش مع رفيقة دربه الموعودة التي كتبها له القدر.

-أنت مخطئ، لم يتردد "نجدت" على هذا المنزل عن رغبة منه أبدًا. دائمًا ما كان يستوحِشُ مُحيطنا. ما هو إلا ولدٌ متوحش يهرب من الناس منذ أمدٍ. والآن وجد ضالته؛ و"إستانبول" مليئة بهذا النوع ممن هم على شاكلته.

وبينما كانت تقول ذلك وتضع "نجدت" بين المتسكعين مهلهلي الثياب كانت تشعر وكأنها قد انتقمت بعض الشيء منه. كانت "ليلى" تعرف جيدًا ماذا لو وقع "نجدت" في يدها مجددًا كيف ستنتقم منه. بغض النظر عن أي شيء كانت لهذا السبب تريد أن تمسك به مجددًا، فكانت تنتظر دون حراك في فخٍّ مثل قط بري قبل أن ينقضَّ على فريسته. لكن تلك القطة الأليفة كانت تتجول في أكثر أماكن صيد في الغابة وكانت لا تجد سبيلًا كي تدخل هناك. وأخيرًا... (ص 290)

وأخيرًا ذات يومٍ كان هناك حفل لذكرى قومية في أحد القاعات العمومية وحينها نجحت الفتاة الشابة في الاقتراب من خطيبها وحبيبها السابق.

-"نجدت"، "نجدت"...

-أحقًا هذه أنتِ يا "ليلى"؟

عندما أدار وجهه نحو الصوت كان وجهًا لوجه وصدرًا لصدر مع "ليلى"؛ كانا وجها لوجه لدرجة أنه استطاع أن يرى الندبات السوداء الكبيرة في عيني الفتاة الشابة في ضوء الشتاء الذي قد انعكس على النافذة الكبيرة، وكانت أول مرة يلاحظ فيها أن بياض عينيها يقرب من اللون الأزرق. مد يده إلى "ليلى" ودفعها قليلًا إلى الوراء، وقال:

-كيف حالك هكذا؟ تعافيتِ تمامًا من مرضك...

كان على وجه "نجدت" ثمة غطاء لم تره ولم تعرفه "ليلى"! واضطرت إلى أن تفحص ذاكرتها جيدًا لكي تستطيع أن تجد تعبيرات وجهه القديمة. هل يا ترى صارت شفتاه صارت سميكة بعض الشيء؟ أو ماذا؟ هل كانت أطراف عينيه ذابلة بهذا القدر؟ وأنفه هل كان بهذا الطول؟

-لا يبدو على وجهك المرض، أنتٍ بخير ما شاء الله!

أصابت الرطوبة عينيْ "ليلى"، كأنها ستبكي، قالت بصوت مرتعش:

-لست على ما يرام. ألا ترى كيف ذبُلت وشحُبت؟ انظر إلى يدي كيف صارت كالثلج... انظر إلى تلك الرعشة التي تعلو صوتي... هذا الزحام يخنقني، إني أختنق، اذهبي إلى الخارج يا "نجدت"!

في حين أن "نجدت" لم يكن يرجح فكرة الخروج، حيث إن هناك فتيات المدرسة الصغيرات يهتفن هتافات قومية بصوت رخو وهزيل، وكذلك ستنتقل الكلمة إلى الخطيب الذي لطالما كان يحب سماعه.

-للخارج؟ لماذا؟ أقبلي ناحيتي ولأجد لكِ كُرسيًا، إذا أردتِ فتحتُ لكِ هذه النافذة قليلًا. (ص 291)

ـ لا يا "نجدت" لا.. هذا الزحام، هذا الزحام... لو تعلم حالة أعصابي! سأسقط من فوري مغشية عليَّ.

وعليه اضطر "نجدت" إلى أن يأخذ الفتاة الشابة إلى الخارج رويدًا رويدًا من بين الحضور. ولكن كان هناك غُصة بداخله كرجل مُنع من شيء كان يريده.

-أقبلي من هناك، مُري من هنا...

وكأن "ليلى" ضريرة. دخلوا في أحد الغرف النائية في المنزل المتواجدون به. انهالت الفتاة الشابة على أريكة مغربية، وكان يبدو على جسدها حالة من الانكسار الذي يصيب الرُّضع، أمَّا وجهها فكان شديد الاصفرار كتمثال شمع. لكن هذا لم يُثير شفقة "نجدت"؛ إذ أنها بالنسبة إليه في هذه الدقيقة ما هي إلا مهمة مُتبعة.

-لأعطيك بعض الماء؛ ربما تصيرين أفضل.

لم تتفوه "ليلى" بأية كلمة، واكتفت بهز رأسها، إلا أن أعينها لم تغب للحظة عن "نجدت". كانت عيناها الجاحظتان السوداوان تتابع أقل حركات "نجدت" وبنظرات مخلوق نال ركلة يستغيث. قالت بصوت من الصعب سماعه:

-يجب عليك أن تصحبني إلى المنزل يا "نجدت"!

-يا للهول، مستحيل، مستحيل! لا أستطيع أن أغادر هنا، فبعد قليل سأرى أحدًا، إنه عمل غاية في الأهمية... غاية في الأهمية. اجلسي هنا إذا أردتِ وبعد الحفل آتي وآخذك.

ودون أن ينتظر أن تقول؛ "حسنًا" أدار مقبض الباب واختفى في هدوء.

التقت الفتاة الشابة بعد مرور ساعتين بـ"نجدت" مجددًا، بينما كان الحضور يهمون بالانصراف، كانت تقترب منه كطفلة يتيمة وسارا في الشارع لمدة بهذا الشكل، قال "نجدت":

-توقفي حتى أجد سيارة لك.

-لمَ، ألن تأتي معي؟

-أتقولين معك، لماذا؟ (ص 292)

-لأني أود أن أمر بغرفتنا قبل العودة إلى المنزل.

في البداية لم يستطع "نجدت" أن يفسر مغزى هذه الجملة، فتساءل:

-أتقولين غرفتنا؟ أية غرفة...

أماءت "ليلى" قامتها:

ـ أنسيت؟ ألا تذكر الغرفة التي في "بنغالتي" "شيشلي " المحاطة أركانها بصوري. ألا تذكر الأرائك الكبيرة ذات الزنبرك التي تحمل اسمي ومترامية هناك. الغرفة التي كنا نوقد فيها الأباجورة الحمراء القاتمة التي فوق الكومودينو...

لم يتحمل "نجدت" أبدًا وصفها الدقيق هذا، فعبس وجهه وقال:

ـ لقد تغير كل شيء في هذه الغرفة. ماذا سترين فيها! لقد نقلتُ سريري إلى المكتبة.

انتفضت "ليلى"، وكأنها نالت لكمة في صدرها، لكنها لم تفقد طاقتها بعد، فقبل أن تركب السيارة التي أوقفها "نجدت" دفعته، وقالت:

-مادام الأمر كذلك، قُل له عنوان منزلنا!

لم يتفوها بكلمة في الطريق، وعندما وصلا إلى المنزل ودَّ "نجدت" أن يعود من عند الباب. حاولت "ليلى" مجددًا استجماع قواها، وصرخت:

-ادخل، أقول لك أدخل!

تخفَّى الشاب بسلوك الخائف من الفضيحة وولج إلى الداخل. لم يكن هناك أحد في العمارة، قالت "ليلى":

-يا لحسن الحظ، أنا أصلًا كنت أود أن أجلس معك على انفراد.

كان منزل آل السيد "سامي" مثل "ليلى"، لم يعُد يقول شيئًا لـ"نجدت".

لقد باتت تلك الجدران التي شهدت أجمل السعادات، والأمنيات، والأشياء بالنسبة إليه لم تعُد تثير اهتمامه وكأنه يراها لأول مرة. أخذته الفتاة الشابة إلى مكان ملئ بالذكريات أكثر، ألا وهو غرفة ارتداء الملابس خاصتها.

كانت الغرفة دائمًا تفوح منها رائحة عتيقة ويسودها مُناخٌ قديمٌ. (ص 293)

كانت "ليلى" تقول:

-انظر، هل ترى؟ ها هو، ها هو..." كان هناك ذكريات صغيرة تركت كل واحدة منها وراءها أثرًا ملتهبًا من "نجدت"، كانت كل ذكرى منهم تُظهر شيئًا ظل ساخنًا من خلال الأحاديث المختلفة التي اختلطت بأحاديث الماضي. لكن رُغم كل محاولاتها لم تستطع أن تُذيب جمود الابتسامة الذي كانت تعلو شفتيْ "نجدت". كانت منهكة مُتعبة فجثت على شلتة مستديرة. ساد في الأجواء صمتٌ طويلٌ غير معروف المدة. كان "نجدت" يفكر لو نهض وانصرف.

بدت "ليلى"، وكأنها أحست بنيَّته هذه فأمدت قدميها على المكان الذي جثت عليه نحو الرجل الشاب، وقالت:

-لكني غيِّرت شيئًا، هل تلاحظ، شُم هكذا!

وألقت بمنديل من الدانتيل كانت تعصره في كفها إلى "نجدت"، وسألته:

-هل تعرف ما اسم هذا؟

رد "نجدت" بإشارة برأسه، وكأنه يقول:

ــ وما أدراني؟

-يسمونه " أحلام اليقطة المجنونة".

ساد الصمت فترة أخرى... حَبَت الفتاة الشابة على ركبتيها حتى اقتربت من "نجدت"، ومدَّت ذراعيها إليه كأنه في حفرة كي تطلب منه المساعدة، فمسكت الرجل من أكتافه وهزته وهي تقول:

-أتعرف، أتعرف! لم أستطع أن أكُفَّ عن أحلام اليقظة المجنونة تلك بعد. (ص 294)

كان كل جسدها يتمدَّدُ مثل مادة مصنوعة من المطاط. لدرجة أن "نجدت" شعر قليلًا أن شفتيه تتجول فوق شفتيها، فأراد أن يسحب رأسه إلى الوراء، إلا أن الفتاة قد أمسكت رأسه بإحكام شديد حتى أنه لم يتبق له إمكانية للقيام بهذه الحركة، إلا أن فمه قد أُقفل بالكلية جراء تقبيل "ليلى".

وسُرعان ما كسر هذا الفم المُقفل كل آمال "ليلى"، فقُطعت ذراعاها، وفقدت جسدها خاصيته المطاطية، وصار في أحضان الرجل الشاب كأنه تمثال متحجر. ترك "نجدت" هذا الجسد فوق الأريكة ونهض كي ينصرف؛ ففتح الباب وتسلَّل من فتحته الصغيرة كالخيال.

كان هناك طعمٌ قد تبقى على شفتيه إثر آخر قُبلة، كان عبارة عن مادة كيميائية ذات طعم سيء.

1928 -1972

(ص 295)